

الضمور الحضاري

وعلاقته بالعلوم الإنسانية



د. أحمد فيصل خليل البحر

الألوكة

www.alukah.net

الضمور الحضاري وعلاقته بالعلوم الانسانية !

The Atrophy of Civilisation and its Relationship to Humanities

د. أحمد فيصل خليل البحر
متخصص في الادب المقارن الحديث
(جامعة يورك - المملكة المتحدة)
Dr Ahmed F Khaleel
ahmed.khaleel@york.ac.uk

تمهيد:

العلوم الإنسانية هي تلك العلوم التي تُعنى بالإنسان عقلاً وروحاً وسلوكاً، أي بمعنى آخر أنها تلك العلوم التي يدور في فلكها وجود الانسان وكيانه، حكايته على هذه الأرض، مبدأه ومنتهاه، مستقره ومستودعه، ماضيه وحاضره ومستقبله مثلما أن تلك العلوم بدورها تدور في فلك الإنسان وكل ما يرتبط به.

ظهرت العلوم الانسانية مع ظهور الإنسان نفسه وأخذت بالتبلور مع أول انفعالاته العاطفية والعقلية، بدءاً بحاجاته الغريزية الأساسية ثم بعاطفة الحب أو الكراهية ثم بأولى تجلياته العقلية المتمثلة بالبحث عن الإله. ثم كان تطور تلك العلوم تبعاً لتطور الإنسان نفسه ورقبه، حتى أصبحت العلوم الإنسانية، ولا تزال، مقياساً للحضارة ومرآة تعكس تقدم هذه الأمة أو تلك على غيرها من سائر الأمم في أرجاء المعمورة حتى على المستوى المادي سواء كان عمرانياً أو اقتصادياً أو غير ذلك.

اليوم وتحديداً في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا تشهد الحضارة وإرهاصات المتمثلة بمبادئ القيم المدنية الأخلاقية والثقافية تدهوراً وانحطاطاً يندر بخطر كبير، يتمثل بانحسار تلك القيم لصالح قيم لاتقوم دون وجود حضارة أخلاقية، كتلك المادية، وأخرى محسوبة على الدين والأعراف ظلماً وعدواناً. فالحضارة الإنسانية أخلاقياً وفكرياً وسائر علومها وفروعها كانت وسوف تضل سبباً لازدهار العلوم المادية نظرياً وعملياً معاً، وكذلك الدين كونه الوجه الأبرز للحضارة وليس معول هدم لها.. فأين تكمن المعضلة؟؟

إن كل تلك الأمم التي كانت لها حضارة فيما مضى وأصبحت اليوم تعيش في ظل حضارتها المقبورة, كانت تتمتع بازدهار حضاري على مستوى الفرد .. أي بمعنى أن مظاهر السلوك الاخلاقي والثقافي المتقدمة تكاد تكون ظاهرة جمعية تشمل الفرد في كل مكان.. من كرسي الحكم وحتى عامل النظافة.. ولنا في عصر الخلافة الراشدة في صدر الإسلام مثلاً حي لا تكاد أسنة الخطباء على منابر الجمعة تخلو من ذكره, كما أن لنا في حضارات بابل واشور وسومر والحضارة الإغريقية والهندية والصينية أمثلة عديدة يظهر لنا من خلالها ازدهار مادي تحول اليوم الى أطلال واثار, واخر ثقافي وفكري لاتزال تلهث بتحليله وسبر أغواره أقلام الباحثين وعقولهم ولايزال العنوان الدائم لتلك الحضارات بل وسبب الإشارة اليها بكلمة "حضارة". وسبب ذلك الازدهار فرض قوانين عامة تحدد السلوك الفردي ضمن الجماعة, يردفها سلّة من القيم والمثل الاخلاقية والفكرية يتم العمل على جعلها مكتسبة لامفروضة. ورغم أن هذه العملية تحتاج الى وقت طويل إلا أنه لا شك في حتمية جدواها وفائدتها في صناعة النهضة. ثم أن تلك الحضارات أخذت بالتدهور ثم اندثرت, والسبب الرئيس في ذلك حصول فجوة حضارية تمثلت في بقاء المظهر وغياب الروح.. أي بمعنى اخر حصول فجوة بين المفروض والمكتسب وخلل في كل منهما وخصوصاً في الإهمال التدريجي للعلوم الانسانية وأهمية دورها في بناء عقل جمعي صحي وناصح يقابله اعتماد كامل على العنصر المادي للحضارة ظناً بأن هذا الأخير يكفي. ورغم أن انحسار الحضارات سنة من سنن الله في الأرض لكن لتلك السنن أسباب. ولنأخذ على سبيل المثال أهم تلك الأسباب من القران الكريم. فالقران يذكر لنا قصة قوم عاد وكيف امتلكوا أسباب النهوض الحضاري المادي من قوة جسدية ومادية مكنتهم من بناء الصروح العظيمة دون اعتماد على مقومات الحضارة المتكاملة واهمها العلوم الانسانية وتطبيقها لبناء صروح تربوية وأخلاقية وسلوكية فردية وجماعية .. وظهر فيهم نبي يدعوهم لسد الثغرة ومعالجة الخلل , مقدماً لهم على طبق من ذهب كل ما ينقصهم لاستكمال مقومات النهوض الحضاري لكنهم رفضوا واثروا اتباع شهواتهم بدل تقنينها وتهذيبها عبر الاطار الأخلاقي والفكري الديني , وهذا الرفض أدى بالنهاية الى سقوطهم سقوطاً مدوياً. ومن زاوية أخرى فإن نبيهم هود عليه السلام كان فرداً في مجتمع يعاني خللاً كبيراً في القيم أدى بالنتيجة الى

تفتشي القيم السلبية كالأنانية (egoism) وهذه الأخيرة كظاهرة نفسية فردية – جماعية تؤدي الى تفكك المجتمع بطريقة لا ينفع معها محاربتها بفرد واحد مصلح ولو كان نبياً.

السقوط الحضاري وسقوط إيكاروس:

في خريف عام 1938 وتحديداً في متحف الفنون الجميلة "Musée des Beaux Arts" في بروكسل، وقف رجل إنجليزي طويل القامة أشقر الشعر محدقاً بلوحة شهيرة ورائعة من أعمال الفنان الهولندي بيتر برويغل (1525-1569). تلك اللوحة رسمها برويغل عام 1558 وعنوانها "مشهد طبيعي لسقوط إيكاروس"¹. كل هذا ليس غريباً.. الغريب أن تلك اللوحة ظلت محل إعجاب الناس لأكثر من ثلاثة قرون لكنها كانت محل سخط ذلك الرجل: إنه الشاعر الإنجليزي ويستان هيو أودن W. H. Auden. تلك اللوحة كانت مثار الهام الشاعر فكتب عنها قصيدته "Musée des Beaux Arts" التي ذاع صيتها أكثر من شهرة برويغل ولوحته لأن أودن ولأول مرة أتى بما لم يستطعه الأوائل ليضع بصمته كصانع حضارة ويثبت للعالم دور الشعر كفرع من فروع العلوم الانسانية في توفير المواد الخام لصناعة الحضارة وديمومتها. ولا مبالغة في هذه الكلام، فأودن لم يكن شاعراً عادياً بل محوراً فكرياً وثقافياً في العقد الثلاثيني من القرن المنصرم. وتساؤلاته التي أثارها في قصيدته الشهيرة التي سأوردها بعد بضعة سطور مع ترجمة لي، تقع في صلب المعضلة الكبيرة والمعقدة التي عانت منها أوربا عقب الحرب العالمية الأولى وأدت فيما بعد لإندلاع الحرب العالمية الثانية. لوحة برويغل كانت دليلاً حياً على صحة نظرية أودن في تحليله للأزمة بوصفها في الأصل خللاً حضارياً في السلوك الإجتماعي على مستوى الفرد، وما سلسلة الاخفاقات السياسية والاقتصادية انذاك سوى نتيجة

¹ إيكاروس ابن ديدالوس: شخصيتان من الاساطير الكلاسيكية وردت في احد كتب أوفيد. تتحور قصتهما حول هروبهما من سجن الملك مينوس في جزيرة كريت بعد أن صنع ديدالوس له ولابنه أجنحة من ريش العقبان ليطيرا محلقتين بعيدا عن البرج الذي كانا محبوسان فيه. إيكاروس، مدفوعاً بطموحه الشديد ورغبته في الخلاص، حلق عاليا ولم يستمع لتحذيرات والده، ليسقط ويهلك بعد أن أذابت اشعة الشمس الشمع الذي لصق والده به الريش.

لذلك الخلل الذي أدى إهماله عبر عقود وقرون طويلة , الى تحوله من سلوك فردي سلبي الى منهج جماعي:

“Musée des Beaux Arts”

About suffering they were never wrong,
The old Masters: how well they understood
Its human position: how it takes place
While someone else is eating or opening a window or just walking dully along;
How, when the aged are reverently, passionately waiting
For the miraculous birth, there always must be
Children who did not specially want it to happen, skating
On a pond at the edge of the wood:
They never forgot
That even the dreadful martyrdom must run its course
Anyhow in a corner, some untidy spot
Where the dogs go on with their doggy life and the torturer's horse
Scratches its innocent behind on a tree.

In Breughel's Icarus, for instance: how everything turns away
Quite leisurely from the disaster; the ploughman may
Have heard the splash, the forsaken cry,
But for him it was not an important failure; the sun shone
As it had to on the white legs disappearing into the green
Water, and the expensive delicate ship that must have seen
Something amazing, a boy falling out of the sky,
Had somewhere to get to and sailed calmly on.

متحف الفنون الجميلة

عن الأسي لم يخطئوا.. عرفوه معرفة اليقين
وكذاك عرف الأقدمين
عرفوا في النفس مكنه ووقع حجوله
عرفوا علامته.. فحين نزوله
لابد من لاهٍ هناك بمأكلٍ , أو ها هنا من يفتح الشباك
أو يمشي ثقيل الخطو دون الالتفات الى الشمال او اليمين.
أو كيف ينتظر الشيوخ ظهور معجزة الولادة ثم يفنى في انتظارهم الوقار مع الحنين
لكن وحين مجيئه.. لابد ثمة من صغارٍ رافضين
في جانب الغابة مثواهم وبركتهم ,
حيث التزلج عندهم لا يستقيم لغيرهم أو يستبين

وكذاك عرف الأقدمين

ماغاب عنهم أن أعظم محنةٍ لآبد عند وقوعها من غفلة الأيام أو غدر السنين
ومكانها في أي زاوية مبعثرة.. أو بقعة منسيةٍ
حيث الكلاب تعيش حياتها الكلبية المثلى،
والمستبد على حصان ذي مؤخرة بريئة
منشغل في حكها بشجيرة كي تستكين.

وكذاك إيكاروسُ عند برويغلٍ مثلاً: فالكل في شغلٍ عن الكارثة الكبرى؛

فإما سمع الفلاح صوت سقوطه في الماء أو سمع الأنين ،
لكنه لم يلتفت، ليس مهما عنده ما قد جرى؛
والشمس أبصر ضوءها ساقان بيضاوان ينغمسان عند الجرف حيث الماء أخضر؛
أو ربما تلك السفينة أبصرت ماكان أندر: غلامٌ من فم الأفق هوى،
ولكن في هدوء أدبرت عنه وابتحرت تلك السفين.

هذه القصيدة تحمل في طياتها شيئاً من أفكار كارل ماركس في الاشتراكية ودورها في بلورة العقل
الجمعي ليصبح إيجابياً ، وشيئاً من أفكار فرويد في تحليله للمبالاة apathy والأناية egoism
ودورهما في تحريك العوامل السلبية لتسيطر على العقل الجمعي عبر فئات محددة في المجتمع. وحسب
فرويد فإن المجتمع ينقسم الى ثلاث فئات: الفئة الأولى ، وهم السواد الأعظم ، وهم الid أو الناس
البسطاء الذين قلما يشكون أو يتذمرون وغايتهم العيش فقط (وفي قصيدة أودن كما إقتبسها هو من
لوحات المعرض، هم الكلاب والحصان ذو المؤخرة البريئة ومن يفتح الشباك أويمشي ثقيل الخطى
والفلاح وأصحاب السفينة) .. يتبعهم فئة أقل عدداً وأكبر شأناً وهم الego ، وهؤلاء هم أصحاب الطموح
من المتعلمين أو السياسيين أو الفنانين وغيرهم (يمثلهم في القصيدة ذاك المستبد الذي يركب الحصان ذو
المؤخرة البريئة والصغار اللاهون عند البحيرة المتجمدة) وغايتهم تحقيق مستوى من العيش الرغيد ولو
على حساب غيرهم. وأخيراً وليس اخراً تأتي طبقة ال super ego (وهم أودن نفسه والرسام الهولندي
برويغل وفرويد وماركس)، وهي طبقة نادرة الوجود في المجتمع تضم النخبة من أصحاب الفكر الثلاثي

الأبعاد كالفلاسفة² والمفكرين والمصلحين الاجتماعيين. والفئة الاخيرة هي حلقة الوصل بين الفئتين الأولى والثانية كما انها الاله والأخطر على حد سواء. فالعلاقة بين الفئتين الأولى والثانية قائمة على الاستغلال وكلاهما يجمعهما عنصران سلبيان هما الانانية واللامبالاة إلا أن هذان العنصران عند الفئة الأولى إيجابي غير فاعل وعند الثانية سلبي ومؤثر.. وتلك مرحلة متقدمة للخلل تنذر بعواقب وخيمة بدت اثارها في ظهور المستبدين والطغاة أمثال هتلر وموسوليني في أوربا حسب رأي أودن. فالانانية واللامبالاة في شكلها الايجابي لدى الجمهور تظهر على مستوى الفرد باهتمامه بنفسه فقط وعدم اهتمامه بمساعدة الاخرين أو اعانتهم اوقات الشدة , وعدم اهتمامه أيضاً بمنع ظلم أو بالدفاع عن مظلوم وكذلك عدم اهتمامه بالاعانة على الظلم وأفعال السوء .. وهذا تعطيل كامل لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما الانانية واللامبالاة بشكلها السلبي كما يظهر لدى فئة ال ego فهي كالاولى لكنها تذهب أبعد من ذلك الى الاعانة على الظلم ونصرة الظالمين وتقديم العون لهم , كالحصان الذي يركبه المستبد ليظلم الناس في قصيدة أودن. وهنا تجدر الإشارة الى ان اودن اخذ هذه الصورة من لوحة اخرى لروبنز بعنوان: "مذبحة الأبرياء" "Massacre of the Innocents" التي تجسد المذبحة التي قام بها الملك الروماني هيرودوت ضد أطفال اليهود ليمنع ظهور المسيح عليه السلام كما ورد في سفر متى. وهناك أيضاً بضع لوحات أخرى تجسد الام المسيح ومعاناته كما يذكر اودن في القصيدة. وبالعودة الى بيت الصيد ومربط الفرس, يتبين لنا أن تحليل العضلات الحضارية لا يعتمد فقط على النظر الى النتائج أو الى الاسباب الفرعية بل بوضع اليد على الجذور الرئيسية للأسباب.. ومعضلة الضمور الحضاري لدينا قد تبدو أسبابها في فساد اخلاقي وسلوكي مجتمعي وإسهال فكري منطرف وطغيان استبدادي دكتاتوري .. لكن هذه كلها ليست أسباب بل نتائج لعدوى الانانية واللامبالاة التي سمح بانتشارها الجهل. لا أقول الجهل بالقراءة والكتابة إنما الجهل بكيفية وماهية ما نقرأه ونكتبه وجدواهما , ومنها الجهل بكيفية التعاطي مع العلوم الانسانية وإدراك أهمية دورها الحقيقي في إحياء نهضة حضارية مجتمعية شاملة. ما اوردته عن أودن كان مثلاً فقط , ولست أزعم أن لدينا اليوم شعراء كأودن أو جمهوراً كجمهوره.. لكنني أزعم

² لا أقصد هنا بالفلاسفة, المتخصصون بالفلسفة وإنما كل من بلغ مرحلة الفلسفة في فرع من فروع المعرفة النظرية والمادية والتطبيقية.

وانا على يقين كامل أننا مثلما نعاني مما عانتها اوربا مطلع القرن العشرين من ركود اقتصادي وحروب أهلية وعالمية فإننا نمتلك ادوات ومستلزمات النهوض الحضاري ولا ينقصنا سوى تفعيلها على مستوى الفرد ومنه الى الجماعة. وبالرجوع الى فرويد وأودن فإن حلقة الوصل كما ذكرت انفاً هي الفئة الثالثة من مفكرين ومتقنين عضويين³ ممن يمتلكون الرغبة والقدرة على الإصلاح والتغيير مثلما ايضا يمتلكون القدرة على الإفساد والتخريب. لذلك يجب أن تبقى تلك الفئة في وضع الحياد بين الفئتين، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء، لأن انحيازها يزيد الطين بله وهذا أحد أسباب الخلل الحضاري لدينا. ويذكر ستيفان كوليني في كتابه (عقول غائبة) *Absent Minds: Intellectuals in Britain* كيف أنه في عشرينيات القرن الماضي أصبح المثقف والمفكر يسمى باللقب والوضع لدى عامة الناس. والسبب خيانة بعض المثقفين والمفكرين ممن وظفتهم الحكومات بالمال ليكونوا ابواق دعاية للحرب. وقد قاموا بالدور على أكمل وجه بتأجيح عواطف الناس الوطنية وزجهم في أتون حرب عالمية قتلت الملايين وأهلكت الحرث والنسل.. ثم ظهرت تلك الفئة مجدداً في الثلاثينيات لكنها جوبهت من قبل طبقة من المفكرين الشباب المصلحين امثال أودن وسبندر وايشروود وداي لويس ومكنيس واليوت.. خصوصاً هذا الاخير بقصيدته الرائعة "الأرض اليباب" *The Waste land*. وما عدا اليوت فقد كان أولئك الأدباء الذين ذكرتهم يعرفون بعصابة أودن *The Auden Gang* , وقد واجهوا هجوماً مضاداً عنيفاً من قبل نظرائهم من مثقفي الفرص الذين ساهموا بخلق جو ضبابي من الخداع والوهم *illusion* في اوربا بشكل عام وفي بريطانيا وفرنسا بشكل خاص. إنما كان ظهورهم ظاهرة صحية في المجتمع وكانت بذرة إصلاح ساهمت بشكل كبير في التعافي من اثار الحرب لانهم أصبحوا فيما بعد مصدر جذب للعامة وإلهام للخاصة.

نحن اليوم بحاجة الى التفتيش عن أمثال تلك الفئة في مجتمعاتنا وتفعيل دورهم الإصلاحي في الشارع والمدرسة والجامعة، فالثورات لا تصلح ما افسدته سنين طويلة من تراكم القيم السلبية في المجتمع، والتي كان لخيانة المفكرين الفاسدين والزائفين , ولا تزال، دور في تعميمها ونشرها بتعطيلهم .. ضمن ما عطلوا وحرّفوا.. للنهج الإصلاحي للعلوم الانسانية وجعلها مجرد ديكور وهامش لا جدوى من ضياع

³المثقف أو المفكر العضوي *organic intellectual* هو ذلك الذي يؤثر إيجاباً فقط وليس ذلك الذي يمتلك عدة وجوه ظاهرها ايجابي وباطنها سلبي، مثله كمثل الأغذية العضوية التي لاتحتوي على مواد حافظة أو كيميائية تؤدي على المدى البعيد الى تأثيرات سلبية وغير صحية.

الوقت في معالجته. وفي هذا الأمر يدلي شاعرنا اودن بدلوه مرة اخرة: فبعد ثلاثة شهور من كتابة قصيدته انفة الذكر, أرفها بقصيدة أخرى لا تقل عنها شهرة, ليجعل من القصيدتين تجسيدا أدبيا لنظرية السبب والنتيجة أو الفعل ورد الفعل cause and effect . فقد حذر اودن أن الأنانية الإيجابية الغير مؤثرة سلباً توفر بيئة ملائمة لظهور نوع أخطر وهو الانانية السلبية المؤثرة سلباً كما أسلفت. وهذا الوجه الأخير والمتطور من الانانية في المجتمع يؤدي الى ظهور الاستبداد وسيادته على مستوى الحكم سياسيا وعسكريا. وهو ما تؤشر له قصيدته Epitaph on a Tyrant "مرثية على قبر طاغية" والتي كتبها في مطلع العام 1939 وفيما يلي نصها وترجمتها:

“Epitaph on a Tyrant”

Perfection, of a kind, was what he was after,
And the poetry he invented was easy to understand;
He knew human folly like the back of his hand,
And was greatly interested in armies and fleets;
When he laughed, respectable senators burst with laughter,
And when he cried the little children died in the streets.⁴

مرثية على شاهد قبر طاغية

ما سعى إلا لإحراز الكمال
وله شعرٌ بسيطٌ , فهمه سهل المنال
وله علمٌ بزلاتِ الرجال
شغله الشاغل تجبيشُ الفيالقِ والكتائب للقتال
كان إذ يضحك , يعم الضحكُ والتهريجُ في الملاءِ الوقور
وإذا يبكي, ترى الطرقات بالأطفال قد صارت قبور.

⁴ القصيدة ترجمها الباحث.

هذه القصيدة حسب وصف انتوني هيكت في كتابه (القانون الباطن) The Hidden Law, موجزة في عدد أبياتها لكنها طويلة وعميقة في مضامينها, ومن أهم تلك المضامين أن أودن يقدم لقراءه من خلالها رؤية استشرافية عن مستقبل مابعد الطغاة في أوروبا في فترة العدالة الانتقالية حيث سيدرك الناس أنهم هم من صنعوا ذلك المستبد الذي لم يكن غير رجل عادي يملك طموحاً وذكاءً ليس بالخارق إنما سيادة اللامبالاة في المجتمع وإدراكه لها كمناخ مناسب للتسلق للسلطة بمعونة الفئة الثانية واستغلال الفئة الأولى ووضع الفئة الثالثة بين خيار الانحياز له أو مواجهة العواقب صنعت منه وحشاً ديكتاتورياً خارقاً. والقصيدة هنا تقدم للقارئ نتيجة حتمية لمجريات الأحداث في القصيدة التي تسبقها. كان هذا دور الأدب والأدباء في أوروبا, والذي ظهر في عصر الحداثة و مابعد الحداثة -modernism and post- modernism بهذا المظهر الذي وصفه عالم النفس البريطاني ادم فيليبس بالمسلي عبر اللاتسلية enchanting through disenchantment: وهذا النوع يقدم اعمالاً أدبية تحقق النشوة للقارئ من خلال عنصر الصدمة لدى مواجهة بالحقائق المريرة التي تتكشف امامه بقراءة هذه السطور عوضاً عن الاكتفاء فقط بالعناصر الأدبية الجمالية والبلاغية المعروفة في الشعر وغيره. كما ان ما أقدمه لكم الان مثال عن الكيفية التي يدرس بها الأدب في الغرب, وهذه الكيفية يكون فيها الامتاع هدفاً ثانوياً لا أساسياً إنما الغريب أنه دائماً يتحقق لان المجتمع هنا أصبح يدرك قيمة التربية السلوكية والاخلاقية المتقدمة التي توفرها العلوم الانسانية ومنها الادب في دول تجيد توظيف تلك العلوم التوظيف الأمثل لأدامة زخم النهوض الحضاري.

خاتمة:

إن مجمل الصور البلاغية التي قدمها الشاعر الانكلو-أميركي أودن في قصيدته الأولى كانت تدور حول تساؤله وتعجبه عن كيفية وصول المجتمع الى مستوى الحضियض بحيث أنهم شاهدوا شاباً يهوي من السماء ليسقط عند شاطئ البحر ثم يموت ولايتحرك أحد لمساعدته ! لكنه وبذات الوقت وفي نفس القصيدة يجيب على هذا التساؤل بطرحه لصور أخرى كصورة المسيح القادم مخلصاً للناس يُصلب فيموت

ولا يتحرك أحد من أولئك الناس لأنقاذه ! هذه التساؤلات تجيب عن نفسها بنفسها: فالشاعر يقدم للقارئ حقيقة لا غبش فيها وهي أن الانهيار الحضاري مبدأه اجتماعي فردي ثم تطور عبر سنين وعقود ليصل الى ما وصل اليه من شمولية في التفكير السلبي ..ولهذا كان يردد "وكذاك عُرف الأقدمين", وذلك أن برويغل ومن قبله أوفيد صورا كلاهما سقوط إيكاروس على أنه عقاب يستحقه لطموحه الزائد, وأن سقوطه لا يعني شيئاً وهذا خلل في التعاطي مع الفن والأدب يشبه الى حد بعيد الاساليب التي نتبعها اليوم في محافظنا التربوية والثقافية لدى تعلمنا وتعليمنا لأي فرع من فروع العلوم الانسانية. أودن كان أول من وقف امام اللوحة فبدت له سوءاتها .. فطفق يحذر من التصوير الإبداعي المبهرج لأبشع صور الانانية واللامبالاة بهذه الطريقة التي أظهرت موت شاب دون إغائته ممن حوله محض جمال ادبي وفني.

لا يمكن بأي حال من الاحوال تحقيق نهضة حضارية دون العناية بالجانب الاخلاقي والتربوي والنفسي والسلوكي للفرد وكل هذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلوم الانسانية ودورها في تفعيل هذه الجوانب. وقد يسأل سائل في معرض هذا السياق, عما إذا كان الاطار الديني للحضارة كافياً للنهوض بها, بدعوى أن العالم العربي يشهد اليوم تدهوراً حضارياً رغم أنه بذات الوقت لا يزال متمسكاً بالدين, بينما يرفل الغرب بحضارته دون دين؟ والجواب على هذا السؤال أن الدين متى ماكان منظومة حضارية تعنى ببناء الانسان كان دعامة للنهوض لالعكس. وتجربة الغرب في هذا المجال عميقة الغور.. فبعد أن تبين للغرب بالتجربة أن الدين (بعد ظهور المذاهب التطهيرية والصراعات المذهبية التي أدت الى حروب أهلية يضاف اليها فساد الكنيسة وغلوها في الفكر الرجعي الذي أسقطته الثورة الصناعية) سبباً في هدم الإنسان تخلى عنه واستبدله بقيم ومفاهيم وضعية كالمادية الجدلية والماركسية ..الخ حتى بلغ به المطاف الى فهم أن الإنسان هو القيمة الحقيقية والنواة للنهوض الحضاري, فغير وعدل من قيمه ليجعل من المادية الأخلاقية منهجاً للنهوض الحضاري بعد الحرب العالمية الثانية.. فظهر الاعلان العالمي لحقوق الانسان وجُعلت تلك المبادئ مع الديمقراطية والعدل والمساواة قانوناً لايقبل الخرق في عموم تخومها.

إنما تبقى, مع كل هذا, معادلة النهوض الحضاري المتكامل ناقصة لديهم: فكل مانراه لديهم اليوم قائم

على قانون مفروض لا مبادئ مكتسبة. وليس هذا موضوعنا الرئيسي اليوم: الموضوع هو أن الغرب يهتم اهتماماً كبيراً بالعلوم الانسانية لعلمه وإدراكه بمدى أهميتها في بناء العقل الجمعي. فرغم الأزمات الاقتصادية لدى دول الغرب, لايزال التمويل قائماً ومنصباً على البحوث الانسانية في التاريخ واللغات والتربية والفلسفة والدين وعلوم الانسان الاخرى. والفرق بيننا وبينهم ان تلك البحوث والدراسات ليست للترف ومضيعة الوقت بل لإبقاء جذوة الحضارة مشتعلة وذلك باستغلال تلك البحوث ونتائجها لتحقيق استثمار أمثل في الانسان بوصفه نواة الحضارة. حتى قوانينهم تصب في هذا الهدف وهذا ما يفسر كيف أن العربي الذي يرمي المهملات في الطريق في وطنه ويرفع صوته في الشارع ويقود سيارته باستهتار يتخلى عن كل ذلك عندما تطأ قدماه بلداً أجنبياً ليصبح مواطناً صالحاً, كما أن هذا يبرر ما قلته انفاً أن الخلل في تلك القيم السلوكية يكمن في حقيقة أنها مفروضة وغير مكتسبة.

ولعلنا إذا نظرنا في أوضاعنا الراهنة بعيداً عن نظرية المؤامرة, سنجد أن ظهور التطرف والمجاميع الارهابية سببه بالدرجة الأساس غياب العدل واستغلال الدين وتفشي الفساد .. وليس هذا جديداً على القارئ. الجديد هو غياب العناية بالإنسان كقيمة أساسية يدور في فلكها العدل والمساواة وغيرهما من المثل لا العكس. حتى الدين يجب أن يُفهم بهذه الطريقة: أن الدين وُجد لأجل الانسان وبناءه بناءاً صحيحاً, وإلا فما دلالة أن يتقدم في القران لفظ العدل أو القسط على الصلاة؟ وما معنى أن يهتم القران الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم بالسلوك الاخلاقي والتربوي لدرجة تصل الى كيفية دخولنا الى الحمام؟ علينا أن ندرك ان تضحيات النبي صلى الله عليه واله وسلم وأصحابه لم تأت إلا لأجل بناء حضارة متكاملة لكل البشرية وقد فعلوا, بعد ان وقعت على أكتاف تلك النخبة النادرة مسؤولية بناءها للعالم أجمع, ومن الخطأ تفسير تضحياتهم على أن الناس يجب أن يضحوا بأرواحهم لأجل دينهم.. ولو كان هذا صحيحاً فلن سيبقى الدين ولماذا وجد؟ هنا في بريطانيا ندرس الأدب ونعلمه لطلابنا بهذه الطريقة, لنتقي بسلوكهم وأخلاقهم وتفكيرهم ونجعل منهم عوامل جذب للأصلاح .. ولم يخطر على بالي في يوم من الأيام أن اهتمام الغرب بالادب محض ترف وحسب. هم أعطوا للعلوم الانسانية قيمتها

الحقيقية بجعلها علوماً تطبيقية لا نظرية وحسب, بينما نحن جعلنا منها هامشاً وعبئاً تحولات معها , كما الانسان في عالمنا, الى أداة لا تصلح الا للأستهلاك مرة واحدة وقد لاتصلح. هنا في الغرب حيث يُعاد تدوير المياه والقمامة والورق وغير ذلك.. يتم تدوير العلوم الانسانية فيظهر لنا كل يوم مفهوم جديد لحقل بحث غير مسبوق كالدراسات الميتافيزيقية الحديثة للعلوم الانسانية التي تعنى بما وراء الأدب.. كدراسة الشعر كمفتاح لفهم الاختلافات الثقافية والسياسية والدينية واستخدام مخرجات مثل هذه البحوث كمراجع تخدم الخطط التربوية و السياسية والعسكرية الخ.

إن لم تكن هذه وظيفة العلوم الانسانية فهذا مؤشر خطير يدل على سقوط حضاري جماعي يجعل سقوط الحضارة المادية مسألة وقت , وليس هذا الكلام جديداً فقد صدح به وردده مالك بن نبي مراراً كما رده جورج اورويل وأودن وآخرون في بريطانيا في ثلاثينيات القرن الماضي.. الفرق هو أن ما صدحوا به لقي أذاناً صاغية وما نصدح به قد لا يعود حتى بصدى صوت.

قائمة المراجع:

Auden, W. H. *Collected Poems*. London: Faber and Faber, 2007.

Collini, Stefan. *Absent Minds: Intellectuals in Britain*. Oxford: Oxford University Press, 2006.

Freud, Sigmund, Anna Freud, Alix Strachey, James Strachey, and Alan Walker Tyson. *The Ego and the Id, and other Works*. London: Hogarth Press, 1961.

Fuller, John. *W. H. Auden: A Commentary*. London: Faber and Faber, 1998.

Hecht, Anthony. *The Hidden Law: The Poetry of W. H. Auden*. Harvard: Harvard University Press, 1993.

Phillips, Adam. *On Balance*. London: Hamish Hamilton Ltd., 2010.